

الإثني 2011-09-05

1466- "اللعب في الوعي" وأسلحة الانقراض الكامل (1 من 3)

تعتة التحرير

هل يمكن فهم ما يجري في العالم، بما في ذلك تسوناميات الربيع العربية دون الإحاطة بكل المخاطر المحيطة بالعالم أجمع، هذه الأيام خاصة، ومنذ بضعة عقود؟

في بداية كتاب "خدعة التكنولوجيا"، ينيه المؤلف "جاك إيلول" إلى أن "لعبة الحقيقة تنطوى على مخاطر، كما أن لعبة الديمقراطية تنطوى على مخاطر وكذلك لعبة الثورة، كما أن تأدية هذه الألعاب مجتمعة تنطوى على مخاطر".

إن ما يتعرض له الوعي البشرى كله خاصة في الثلاث عقود الأخيرة من خلال الإعلام خاصة أصبح لعبة من أخطر ما تعرضت لها البشرية عبر تاريخها. وأخطر آليات التمداد في ذلك هو أن تملك القوة المسئولة عن هذا الخطر كل أسلحة الانقراض الشامل، تبثها، وتروج لها، وتستعملها لأغراضها الخاصة، وهي لا تدرك مخاطرها التدهورية على مستوى العالم دون استثناء من يستعملها.

المسألة تتعلق بخطأ تطوري جار يهدد الجنس البشرى برمته، وقد استطاع بعضنا بفضل ما تميزنا (وامتحننا) به من "وعي" أن ندرك طبيعة وحجم وسرعة هذا الخطر، ونحاول تجنبه، لكن المصيبة أن نفس هذا الوعي الذي يمكن أن ينقذنا من خطر الانقراض هو ما يتعرض الآن للبرجمة المغرضة، والتشويه المنظم بألعاب الإعلام، وتفاهة التربية، وسوء التدوين، وتسويق ديمقراطية مغشوشة، وحقوق إنسان مضروبة.

الوعي هو غير العقل، واللعب في الوعي أخطر من غسيل المخ، الوعي هو غير التفكير وغير الذكاء وغير الإدراك وإن شملها جميعها. الوعي البشرى، بما صار إليه، وما تمكن منه، هو الذي جعل أغلب ما كان يتم عند أسلافنا الحيوانات بطريقة آلية لحفظ البقاء، يجري عند الإنسان وهو خاضع للمراجعة والتخطيط والتعديل، أغلب الناس يفضلون الحديث عن عقل الإنسان وإنجازاته كأهم علامات ما وصل إليه من تطور، حتى أنهم اختزلوا الإنسان إلى ما يسمى "الحيوان

الوعى الذى أتحدث عنه ليس نقيض اللاوعى (اللاشعور بلغة التحليل النفسى الفروويدي) بل هو كل منظومة بيولوجية وجودية ظاهرة أو كامنة قادرة على التشكيل والتشكل لتحقيق هدف معلن أو خفى. نحن لا نملك الوعى فى مقابل ما هو "لا وعى"، نحن نعيش بمستويات متعددة من الوعى تتبادل وتتجادل وتتشكل طول الوقت.

هذا الوعى البشرى هو أعظم ما أنتجه التطور بشكل واعد بما يتخلق منه أروع مما تخلق به، وهو هو الذى يتعرض فى الآونة الحالية لمأزق تطورى حرج، ذلك أن الإنسان المعاصر قد حقق إضافات علمية وتقنية رائعة هى التى يستعملها فى التعامل مع الوعى البشرى بكل مستوياته، فتصيغه فى تشكيلات وتنوعات غير مسبوقه بسرعة لا تسمح باختبارها: هل هى لصالح تطوره أم لمزالق فنائه.

من خلال هذه الآليات أمكن للسجلات المتحكمة فى هذه الآليات أن تؤثر فى تشكيلات الوعى بطرق متعددة تبدأ من تعديلات وتنوعات تكاد تشبه ما علمنا إياها الحاسوب ولا تنتهى عند ما نعلم. إن هذه السلطات السياسية المالية الظاهرة والخفية (وغيرها من وسائل التعليم والإعلام) يمكنها أن تضيف للوعى، وتحذف منه، وتعيد تشكيله، وتوسع ذاكرته، وتسرع من حركته، تماما مثلما نتعامل مع تحسين أو تحديث أو تخريب أى حاسوب (شئ) أشبه بإضافة سعة ذاكرة الحاسوب كذا ميغا بايت، أو إضافة قرص عتاد خارجى يحمل آلاف المعلومات اللازمة، أو إضافة مفاعل للسرعة يسهل الإنجاز ويعمقه). أصبح من الممكن بقصد أو بغير قصد، بحسن نية أو بسوءها - أن ندخل إلى الوعى ببرامج مقحمة ليست بالضرورة لصالح التطور أو الوجود الأرقى أو الجمال أو الإبداع، أصبح من الممكن تخليق غرائز استهلاكية قاتلة، وإقحام غرائز أيديولوجية زائفة، وتجميد غرائز دينية راسخة، أصبح من الممكن حشر معلومات اغترابية مدمرة، تماما مثلما يفعل الساديون أو العابثون حين يقحمون فيروسا مهلكا فى الكمبيوتر.

وللحديث بقية.